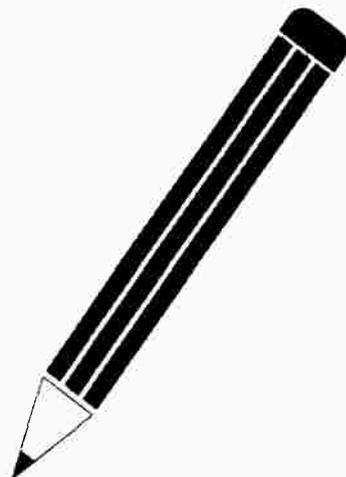


الفصل الثالث

نظريات التوجيه والإرشاد النفسى



عرفنا أن الإرشاد النفسى علم يقوم على نظريات علمية. وعرفنا كيف يبدأ البحث العلمى من دراسة الظاهرة النفسية والفروض مروراً بالدراسات التجريبية التى تعطى نتائج وحقائق وقوانين تلخصها نظرية.

وليس معنى هذا أن النظرية هى نهاية المطاف وأن العلم ينتهى والبحث العلمى يتوقف بمجرد الوصول إلى نظريات. ولكن عند التوصل إلى نظرية تبدأ الحلقة من جديد وتخضع النظرية للبحث العلمى المستمر.

وهكذا تظهر نظريات جديدة وتوضع نظريات قديمة فى علم النفس ولا يبقى لها غير القيمة التاريخية فقط.

إن العلم يتطور، والنظريات السابقة والحالية ترتبط بأسماء علماء معينين توصلوا إليها، وهى محددة بعينات معينة وإجراءات تجريبية وكلينيكية محددة. فنحن نعرف نظرية الذات لكارل روجرز ونظرية المجال لكيرت ليفين... وهكذا. ونحن نعرف أن الأساليب العلمية التى استخدمها هؤلاء تتطور، وإمكانات البحث العلمى تنمو وتنمو وسنجد أساليب حديثة تنير الطريق أكثر وتوسع مجال الرؤية.

أهمية دراسة النظريات:

تضم مجموعة منظمة متناسقة متكاملة من الحقائق والقوانين التى تفسر الظواهر النفسية، والنظرية يجب أن تتضمن الفروض الأساسية التى بنيت عليها، كما يجب أن تتضمن مجموعة من التعريفات الإجرائية أو التجريبية. والفروض يجب أن تكون ذات صلة بالوقائع التجريبية التى تهتم بها النظرية. وتهدف النظرية إلى اكتشاف العلاقات التجريبية الثابتة بين المتغيرات.

والإرشاد النفسى يهتم بدراسة وفهم وتفسير وتقييم السلوك وتعديله وتغييره. من ثم فلا بد من دراسة النظريات التى تفسر السلوك وكيفية تعديله. وتفيد نظريات الإرشاد النفسى فى فهم العملية الإرشادية نفسها، وفهم أوجه الشبه والاختلاف بين طرق الإرشاد.

ونحن نجد أن بعض المرشدين يفضلون العمل فى ضوء نظرية محددة دون غيرها من النظريات مثل نظرية الذات بطريقة الإرشاد غير المباشر أو الإرشاد الممرکز حول العميل.. وهكذا.

أولاً: نظرية التحليل النفسى Psychoanalysis

كان الشعور هو موضوع علم النفس قبل ظهور التحليل النفسى الذى عارض هذا التيار وأقام ما يسمى بعلم نفس الأعماق أو علم نفس اللاشعور.

ولا يجب أن نتصور أن التحليل النفسى موضوعه دراسة اللاشعور، وأن الشعور موضوع علم نفس آخر، فالواقع أن التحليل النفسى، وإن قام على معارضة التيارات السيكولوجية السائدة فى القرن التاسع عشر إلا أنه يدخل الشعور فى دراسته، بل ويدرسه فى علاقته باللاشعور، وبهذا يصبح موضوع التحليل النفسى ليس هو الشعور واللاشعور، بل هو الإنسان فى شمول إنسانيته من حيث هو وحدة بيولوجية اجتماعية ذات تاريخ.

يفترض التحليل النفسى وجود جهازاً نفسياً قسمه إلى ثلاثة أقسام هى:

الشعور، وما قبل الشعور، واللاشعور.

يقول فرويد (.. إن الشعور تعبير وصفى خالص يصدق على أكثر المدركات مباشرة وقيئناً. ولكن التجربة تدلنا على أن عنصراً نفسياً كالتصور مثلاً، وليس شعورياً على نحو دائم، وإن ما يميز بالأخرى العناصر النفسية، اختفاء حالة الشعور عنها اختفاءً سريعاً، فقد يكون تصوراً ما شعورياً فى لحظة معينة ولا يكون فى اللحظة التالية - لذلك نقول إن الوقائع النفسية الضمنية أى اللاشعورية بالمعنى الوصفى لا الدينامى للكلمة، هى وقائع قبل شعورية، بينما نستبقى كلمة لا

شعورية للوقائع النفسية المكبوتة أى اللاشعورية من الناحية الدينامية، فلدينا إذن ثلاثة حدود: شعورى وقبل شعورى، ولا شعورى.

غير أن فرويد لم يلبث أن عدل هذا التصور الأول للجهاز النفسى، فجعل منه منظمات نفسية ثلاثة هى الهو، والأنا، والأنا الأعلى، وتتبع نشأة كل منها، وخص كل منظمة منها بوظائف نفسية معينة، واصفاً بذلك أسس ما يسمى فى التحليل النفسى المعاصر باسم "سيكولوجيا الأنا" Ego psychology.

وسوف نعرض فى الجزء التالى لبعض المفاهيم الأساسية لنظرية التحليل النفسى تساعد فى عملية الإرشاد النفسى.

بناء الشخصية:

ذهب فرويد إلى القول بوجود ثلاثة منظمات رئيسية للشخصية هى: الهو The Id والأنا The Ego والأنا الأعلى The Super Ego وأن لكلٍ منها وظائفه وخصائصه ومكوناته ومبادئه ودينامياته وميكانزماته التى يعمل وفقاً لها، إلا أنها جميعاً تتفاعل فيما بينها تفاعلاً وثيقاً وأن سلوك الإنسان هو فى الأغلب محصلة تفاعل هذه الأنظمة الثلاثة. ونادراً ما يعمل أحد هذه النظم بمفرده دون النظامين الآخرين.

الهو:

يعتبر الهو النظام الأسمى للشخصية، ويتكون الهو من كل ما هو موروث وموجود منذ الولادة بما فى ذلك الغرائز، أنه مستودع الطاقة النفسية، والهو وثيق الصلة بالعمليات الجسمية التى يستمد منها طاقاته. ويطلق فرويد على "الهو" اسم: الواقع النفس الحقيقى، لأنه يمثل الخبرة الذاتية للعالم الداخلى ولا تتوافر له أية معرفة بالواقع الموضوعى.

وعندما يتزايد مستوى التوتر لدى الكائن الحى فإن "الهو" يعمل بطريقة من شأنها تفرغ التوتر مباشرة وعودة الكائن الحى إلى مستوى ثابت منخفض ومريح من الطاقة. ويسمى مبدأ خفض التوتر الذى يعمل "الهو" (مبدأ اللذة).

ويرى الفرويديين أن في "الهو" الحقيقة النفسية الخالصة في شخصية الفرد ويرون أن ما يدفع الفرد إلى أوجه نشاطاته المختلفة يكمن في "الهو" تلك التي تحتوي أساساً على الحفزات الجنسية والغرائز العدوانية. غير أن الهو لا تستطيع تحقيق إشباع حقيقى وذلك لبعدها عن الواقع. ولهذا كان لابد لجزء منها أن يتميز وينمو مكوناً ما أطلق عليه "الأنا" وهي بمثابة الجهاز المنفذ، وهي الوظيفة المنفذة للشخصية، ولهذا فالهوى تمد "الأنا" بما يحتاج إليه من طاقة حتى تستطيع تنفيذ رغبات الهوى.

و"الأنا" يعمل طبقاً لمبدأ الواقع Reality Principle وأن غاية مبدأ الواقع هو الحلولة دون تفرغ التوتر حتى يتم اكتشاف الموضوع المناسب لإشباع الحاجة. إن "الأنا" هو الجهاز الإدارى للشخصية لأنه يسيطر على منافذ العقل والسلوك ويختار من البيئة الجوانب التي يستجيب لها ويعزز الغرائز التي سوف تشبع والكيفية التي يتم بها ذلك الإشباع. ويجب على الأنا عند قيامه بهذه الوظائف الإدارية البالغة الأهمية أن يعمل على تكامل مطالب كثيراً ما تتصارع فيما بينها، وهي مطالب الهوى والأنا الأعلى والعالم الخارجى كما تفرض عليه بوساطة نظام من الثواب والعقاب.

إن الأنا الأعلى هو الدرع الأخلاقى للشخصية وهو يمثل ما هو مثالى وليس ما هو واقعى وهو ينزع إلى الكمال بدلاً من اللذة، إن شاغله الأول أن يقرر هل شىء ما صائباً أو خاطئاً، حتى يستطيع التصرف على أساس القيم الأخلاقية التي يملكها ممثلو المجتمع.

إن الأنا الأعلى بوصفه الحكم الخلقى الموصل للسلوك ينشأ استجابة للثواب والعقاب الصادر من الوالدين، ولكى يحصل الطفل على الثواب ويتجنب العقاب فإنه يتعلم أن يقود سلوكه فى الاتجاهات التي حددها الوالدان.

وفى ختام هذا الوصف الموجز للأنساق الثلاثة للشخصية، يجب أن تعرف أن الهوى، والأنا الأعلى ما هى إلا مجرد أسماء لعمليات سيكولوجية مختلفة تعمل وفق نظم مبادئها وهي تعمل تحت القيادة الإدارية للأنا.

تطور الشخصية عند فرويد:

كان فرويد أول صاحب نظرية سيكولوجية يؤكد الجوانب التطورية في الشخصية، ويؤكد - بخاصة الدور الحاسم لسنوات الطفولة المبكرة والطفولة المتأخرة في إرساء الخصائص الأساسية لبناء الشخصية. والحقيقة أن فرويد يرى أن الشخصية يكتمل القدر الأكبر منها عند نهاية السنة الخامسة من العمر. وأن ما يلي ذلك من نمو يقوم في معظمه على صياغة البناء الأساسي وقد وصل إلى هذا الاستنتاج على أساس خبراته مع المرضى الذين يعالجون بالتحليل النفسي.

إن الشخصية تتطور استجابة لأربعة مصادر رئيسية للتوتر:

١ - عمليات النمو الفسيولوجي.

٢ - الاحباطات.

٣ - الصراعات.

٤ - التهديدات.

وكتيجة مباشرة لتزايد التوتر الناتج من هذه المصادر يجد الشخص نفسه ليتعلم أساليب جديدة لخفض التوتر، وهذا التعلم هو المقصود بتطور الشخصية.

مراحل النمو النفسي:

يعطى فرويد أهمية كبيرة للسنوات الخمس الأولى من حياة الطفل وهو يرى أن الخبرات التي تحدث في هذه السنوات تؤثر تأثيراً كبيراً على الشخصية وتمدها بسماتها المميزة لها.

تطبيقات عملية للتحليل النفسي في الإرشاد

إن العلاقة العلاجية بين العميل والمرشد النفسي تتضمن نفس خطوات التحليل النفسي:

التداعي الحر Free Association

وتسمى بالقاعدة الأساسية Fundamental Rule وهي عبارة عن ميثاق يتعهد فيه المريض - منذ بداية العلاج التحليلي - بالتعبير عن كل ما يجول بخلد دون حذف

أو اختيار إراديين، فهي تعارض الاتجاه السائد نحو السكوت عن الخواطر المؤلمة وعدم التصريح بها للنفس. والغاية من تطبيقها إذن معارضة عوامل الكبت المسئولة عن تكوين المرض النفس، بمعنى أنه إذا أطلق المريض حوافزه دون تقييد شعورى أو إرادى، فإنه لا يلبث أن يكشف بالتدريج عن المحتويات النفسية المكبوتة فى اللاشعور وعن الحيل النفسية اللاشعورية المسئولة عن هذا الكبت، وبإخضاع هذه الحيل وتلك المحتويات للتحليل المستمر يتحقق حل الصراع النفسى وما يفضى إليه من مختلف الأمراض.

التحويل (الطرح) Transference

يشير مفهوم الطرح على موقف انفعالى يقفه المريض تلقائياً من المحلل النفسى، ويتميز أحياناً بغلبة مشاعر الحب أو مشاعر العدوان، وإن كان يتألف غالباً من مزيج من العنصرين (الطرح الموجب والطرح السالب والطرح المزدوج) وهذه المشاعر لا تنطبق على الموقف الحاضر - وإنما هى مواقف لا شعورية طفلية، يحياها المريض ثانية فى الموقف العلاجى، ويخلع فيها على المحلل شخصية الأفراد المسئولين عن نشأة هذه المشاعر وعن تكوين شخصية المريض تكويناً يتسم بالصراع النفسى والعجز عن النمو النفسى الكامل (الوالدان ومن حل محلهما).

نقد نظرية التحليل النفسى:

لا شك أن لنظرية التحليل النفسى مزايا عديدة حيث اهتمت بعلاج أسباب المشكلات والاضطرابات السلوكية. كما أنها تناولت الجوانب اللاشعورية من محاولة تحرير الفرد من الخبرات المكبوتة فى أعماق النفس وإعلائها كما أنها اهتمت بالسنوات الأولى من حياة الطفل.

ولكن إلى جانب ذلك نلاحظ أن نظرية التحليل النفسى

اهتمت بالمرضى دون الأسوياء العاديين. وأن النظرية برمتها موجهة لفهم وتقسيم المرض النفس، ويرجع هذا إلى نشأتها الأولى حيث بنى لبناتها الأولى فرويد فى عيادته من خلال الحالات المرضية إلى استقبالها.

ثانياً: نظرية الذات:

أن صاحب هذه النظرية هو كارل روجز، وهو يعتقد أن الذات هي جوهر الشخصية الإنسانية، وأن مفهوم الذات حجر الزاوية الذى ينظم السلوك الإنسانى.

وقد عرف الذات بأنها التنظيم المعرف لمفاهيم الفرد وقيمه وأهدافه ومثله وهى الصورة المضطربة لدى الفرد عن نفسه.

وكانت بدايات هذه النظرية فى عام ١٩٤٢ ولكن روجز شرح أبعاد هذا المذهب فى كتابه (العلاج النفسى المركز حول العميل) فى عام ١٩٥١.

وقد قال روجز (١٩٦١) "أننى كنت أسأل نفسى كيف أستطيع أن أعالج أو أغير ما لدى الفرد. والآن أصبحت أسأل. كيف أستطيع أن أقيم علاقة وجوفاً نفسياً يستطيع من خلاله المريض أن يحقق أفضل نمو نفسى".

ويتأثر مفهوم الذات بخبرات الفرد المباشرة وقيم الأباء وأهدافهم وفكرة المرء عن نفسه متعلمة وهى ارتقائية تبدأ منذ الميلاد وتتمايز بالتدريج خلال مرحلتى الطفولة والمراهقة. وهناك ثلاثة مصادر لتكون صورة الفرد عن نفسه.

أ - قيم الأباء وأهدافهم والتصورات التى يواجهها الفرد للمجتمع المحيط به.

ب - خبرات الفرد المباشر.

ج - التصورات التى تكون الصورة المثالية التى ترغب أن تكون عليها.

ويقوم مفهوم الذات بوظائف مختلفة لدى الفرد منها:

أ - وظيفة دافعية هى التى تحفز المرء على السلوك لتحقيق أهدافه.

ب - وظيفة تكاملية بحيث تؤدى إلى تكامل السلوك الفردى بما يحقق صورة الفرد عن نفسه.

وهو يرى أن الفرد إذا أدرك نفسه على أن يتصرف فى مختلف المواقف بما يتلاءم مع صورته عن نفسه فإنه يشعر بالكفاية والجدارة والأمن. أما إذا شعر بأنه يتصرف خلاف فكرته عن نفسه يشعر بالتهديد والخوف.

ولما كان لدى الفرد حاجة ملحة كى يظهر أمام الآخرين على أنه قوى وجدير وقادر على حل مشكلاته والاعتماد على نفسه وتحقيق ذاته فإن على المرشد النفسى أن يثبت هذه الحاجة وأن يعتمد على تكتيكات وأساليب تساعد المسترشد على تحقيق هذه الحاجة والعمل بطريقة إيجابية سوية.

وقد أشار روجز إلى أن الفرد يدرك الأشياء والمواقف بطريقته الخاصة. فكل واقعة خارجية لها دلالة بقدر المعنى الذى يعطيه الفرد لهذه الواقعة.

الأهمية الخاصة لنظرية الذات فى الإرشاد النفسى:

يجمع الكتاب والباحثون على أن أحد الأهداف الرئيسية للإرشاد العلاجى هو تنمية مفهوم واقعى عن الذات Realistic Self - concept ، وأن معظم حالات سوء التوافق هى نتيجة الفشل فى تنمية هذا المفهوم الواقعى ورسم الخطط التى تتلاءم معه. ومن المعلوم أن من ينمى مفهوماً منخفضاً للذات أو أقل من الواقع يكون لديه مشكلات تماثل فى حدتها تلك التى تكون لدى من ينمى مفهوماً مبالغاً فيه للذات. وقد وجد هافنير أن مرضى الذهان يكون مفهوم الذات لديهم مشوهاً وبعيداً عن الواقع.

ويعتقد معظم الباحثين أن الإرشاد النفسى هو علاقة بين المرشد والعميل يضع فيه العميل مفهومه عن ذاته كموضوع رئيسى للمناقشة ، بحيث تؤدى عملية الإرشاد إلى فهم واقعى للذات وإلى زيادة التطابق بين مفهوم الذات المدرك ومفهوم الذات المثالى والسلوك نشاط موجه نحو هدف من جانب الفرد لتحقيق وإشباع حاجاته كما يجربها فى المجال الظاهرى كما يدركه.

ويتفق السلوك مع مفهوم الذات ، ومع المعايير الاجتماعية ، وبعضه لا يتفق مع بنية الذات والمعايير الاجتماعية. وعندما يحدث تعارض هنا يحدث عدم التوافق النفسى.

وأحسن فهم لسلوك الفرد يكون من وجهة نظر الفرد نفسه ومن داخل إطاره المرجعى ، أى من داخل مجال الإدراكى.

وأحسن طريقة لإحداث التغير فى السلوك هى أولاً إحداث التغير فى مفهوم الذات.

وهذا ما يحاول المرشد إحدائه فى طريقة الإرشاد المركز حول العميل Elient centred بعبارة أخرى المركز حول الذات Self - centred.

أهم تطبيقات نظرية الذات:

١ - ينبغى على المرشد النفسى أن يعتبر المسترشد هو محور العملية الإرشادية. ولأن النظرية برمتها تقوم على الإيمان بأن العميل لديه من الإمكانيات التى تمكنه من تحقيق ذاته وتقرير مصيره. وعليه أن يتحمل مسؤولياته. وأن الإطار الداخلى للمسترشد هو الحقيقة الموضوعية التى يجب أن يعتمد عليها المرشد. وعندما يستطيع المرشد أن يتعرف إلى مضامين هذا الإطار الداخلى يمكن عندها أن يدخل إلى عالم المسترشد وفهم انفعالاته وبالتالي إمكانية بذل المساعدة له للوصول إلى مرحلة من الاستبصار.

٢ - على المرشد أن يضى جواً من التسامح والتقبل خلال العملية الإرشادية فيها يساعد على التخفيف من خطر التهديد وهذا الجو يساعد العميل على أن يتقبل الجوانب الذاتية التى لم يكن يتقبلها من قبل. ومثل هذا الجو يسمح له بالتعبير عن بعض المشاعر التى كان يخفيها لأنها تسبب له بعض التهديد. وبعد أن يتقبل نفسه يستطيع أن يتقبل الآخرين.

٣ - أن أهم عنصر فى العلاقة الإرشادية هو الجانب الانفعالى لأن المعلومات وتفسيرها وتشخيص الأسماء ليس لها أهمية بقدر الأهمية التى يحظى بها الجو الذى يستطيع المرشد أن يصبغه على العلاقة.

نقد نظرية الذات:

أ - أن النظرية لم تضع تصوراً كاملاً لطبيعة الإنسان. وذلك لتركيزها الكامل على الذات ومفهوم الذات.

ب - يؤكد روجرز أن الفرد يعيش فى عالمه الذاتى الخاص ويكون سلوكه تبعاً لإدراكه الذاتى ونسى أن يشير إلى الموضوعية. كما أنه ركز على الجوانب

الشعورية وتناسى الجوانب اللاشعورية. لدى الفرد. وذلك على الرغم من أن الجوانب اللاشعورية ذات دور كبير في تطوير المرغوب لدى الفرد.

ج - لم يهتم روجز بالاختبارات والمقاييس إلا عندما يرغب العميل متناسياً أن جمع المعلومات أمر هام للمرشد.

ثالثاً: النظرية السلوكية:

يسلم أصحاب النظرية السلوكية بأن سلوك الإنسان متعلم ومكتسب. وهذه الدوافع هي التي توجه الفرد للوصول إلى أهداف تشبع الحاجات المختلفة. ولقد تحدث أصحاب هذه النظرية عن مفهوم التدعيم ويعنى هذا أن الفرد إذا استجاب لموقف معين واثيب على ذلك فإن الاستجابة تثبت وتنزع إلى التكرار فى مواقف مشابهة.

أما الاستجابات التي لا تثاب تميل للإنطفاء والخمود.

ويرى أصحاب النظرية السلوكية إن للاضطرابات السلوكية أنماط من الاستجابات الخاطئة أو غير السوية التي تعلمها الفرد. ويحتفظ بها لفاعليتها فى تجنب مواقف أو خبرات غير مرغوبة. مثال (طفل نشأ ببيئة يمارس عليه فيها الظلم، فلم يجد سبيلاً سوى العدوان للرد على هذا الظلم. ويصبح العدوان سلوكاً مرضياً لديه).

أما بالنسبة لتغير السلوك غير السوى. لابد للمرشد أن يحدد هذا السلوك وبواعثه والشروط التي يظهر فيها. وتخطيط المواقف التي يتم فيها التعليم الجديد الذى يؤدي إلى تكوين ارتباطات جديدة.

ولعلاج مثل هذه المواقف لابد للمرشد النفسى من أن يهيئ جواً نفسياً سويًا وعليه أن يستمع إلى المسترشد باحترام وأن يبدى نحوه المودة والمشاركة الوجدانية لمساعدته على استعادة ذكرياته للتخلص من قلقه وخوفه. وانطفاء الخوف يساعد المسترشد على النشاط.

ويركز دعاة هذه النظرية باستخدام التعزيز الموجب للسلوك الجديد.

نقد النظرية السلوكية:

- يركز أصحاب هذه النظرية على أن السلوك الظاهر الملاحظ هو موضع الاهتمام.
- يتغاضى أصحاب النظرية عن النظر للفرد ككل بل يهتمم السلوك اللاسوى الظاهر دون النظر إلى العناصر الذاتية التى تكمن وراء هذا السلوك.
- أن هذه النظرية تعتمد على النتائج التى توصلت إليها فى تجاربها على الحيوان.
- تركز النظرية على إزالة السلوك اللاسوى. دون التركيز على الحل الجذرى للسلوك اللاسوى عن طريق أسبابه الدينامية وإزالتها وبذلك فإن المساعدة على الحل تكون عابرة ومؤقتة وغير صحيحة.

